اسفل بناء موقعهُ وراء الكنيسة الكاتدرائيَّة حيث كان سور المدينة الجنوبي وعلى الحجر اثار كتابة فنظَّفناهُ واذا عليهِ كلمتان فقط محفورتان حفراً عميقًا وجليًّا باللغة اللاتينيَّة وتعريبهما « الاله مركور »

ΔEO
MERCYR.
✕

وتحت هذه الكتابة علامة كان يستعملها المسيحيون الاقدمون للدلالة على الصليب (١ ونظن انها حُفرت في زمان متأخر وقد استُعملت في هذه الكتابة اللاتينيَّة بعض الحروف اليونانيَّة كما يُرى ذلك في كثير من الكتابات التي حُفرت في اواخر القرن الثالث . فمن ذلك ومن هيئة حروفها نرجح انها نُقشت في ذلك القرن . اما نسبة هاته الآلهة الغريبة للآلهة الوطنيَّة فقد وضح باجلى بيان ان جوبيتر كان يمثل البعل . والزُهَرَة ڤينوس كانت تنوب عن عشتروت . اما الإله مركور فالى الآن لم يظهر وجه نسبته لمثله من آلهة السوريين . ولعل الايام تكشف لنا في المستقبل شيئاً عمَّا كان يمثلهُ مركور اليوناني من الآلهة الوطنيَّة . ولا شك بان الزمان حلَّال المستغلقات وكشَّاف الخبايا

المذاكرات الجغرافيَّة في الاقطار السوريَّة

للاب هنري لامنس مدرّس التاريخ والجغرافية في المكتب الشرقي

٣ موقع سورية (تابع)

فلمَّا رأى ملوك بابل واشور ما خصَّ الله بهِ بلاد سوريَّة من خصب التربة ومن حسن الموقع للمعاملات التجاريَّة احبُّوا ان يجعلوا البحر المتوسط تحت سيطرتهم لتسهيل المواصلات بين بلاد الشام ووادي دجلة والفرات وتلك لعمري كانت مسئلة

١) قلنا ان هذه العلامة (✕) قابلة لتفاسير شتَّى ولا نظنُّ انها الاختصار المتَّخذ للدلالة على قائد المائة (ἑκατοντάρχης) او قائد الالف (χιλίαρχος) وابعد من ذلك ان يقال انها علامة الصليب عند قدماء النصارى وذلك اذا افترضنا انَّ رسمها كان بعد عهد الكتابة والتقدمة للاله مركور (Des Mercur(io)) وان الذين رسموها هم من النصارى . وعندنا ان هذه العلامة تدل على صورة الصاعقة مختصرةً . واني سأعود ان شاء الله (Mélanges, II) الى فحص هذا الاثر الذي ترفَّق جناب ميخائيل افندي الوف الى اكتشافهِ فصانهُ من الخراب وسبق الى معرفة شأنهِ

الاب ل . جلابرت

حيويَّة اذ بها تنفتح الطرق التجاريَّة فتُنقل الى جهات الغرب مرافق الهند وثروتها (١ . فما كان من امرهم لتحقيق غايتهم الَّا ان يتعقَّبوا آثار القوافل الكنعانيَّة التي سبقتهم الى استيطان الشام وكان يحدوهم ايضاً الى سيرهم الى الامام رغبتهم في مبارزة فراعنة مصر وهم لم يعرفوا دولةً أخرى تقوى على ان تحولهم دون انجاز مقاصدهم فتنتزع من ايديهم السلطة على آسية (٢ . وكان لهم سبب آخر ينهض همهم ويدفعهم الى جهة البحر المتوسط اعني حاجتهم الماسَّة الى الخشب وكانوا في ذلك والمصريين سواء. فلم يرضوا ان ينتفع الفراعنة وحدهم من غابات سوريَّة الفاخرة لا سيَّما ارزها الذي كانوا يتَّخذونهُ لزخرفة مبانيهم وقصورهم حيث وُجدت آثارها في أيامنا (٣

وهنا لا يجوز لنا ان نضرب الصفح عن امرٍ لم يكن في الحسبان وهو تأثير غابات لبنان في احوال اهلها وتدبير شؤونهم . فانَّ هذه الاحراج هي التي اكسبت الفينيقيين نقابة البحر لأنَّ منها كانوا يستمدُّون الاخشاب اللازمة لتجهيز السفن فصاروا بذلك في مقدَّمة الملاَّحين يتولَّون التجارة البحريَّة مع البلاد البعيدة. لكنَّ هذه المنافع ايضاً قد حرَّكت مطامع الشعوب المحيطة بهم للاستيلاء على بلادهم . فترى كيف الاهواء البشريَّة تتعرَّض لأحكامهِ تعالى فتبليل النظام الذي سنَّهُ لكلّ بلاد . وقد سبق انَّ سوريَّة في رسم الخالق وُضعت لتكون بلداً وسطاً يجمع في التحابّ والالفة الشعوب المتنائية

واعلم انَّ بلاد الشام لم تشعر قطّ بمثل وطأة الامم الشرقيَّة لكنَّها نالت ايضاً من موقعها نعماً عزَّتها عن هذه المساوئ وخوَّلتها منافع مشكورة ومنناً سابغة فانَّ وقوعها بجوار بلاد اليونان كان سبباً لترقيها في الصنائع والفنون ولتقدُّمها في ضروب العلوم . وكذلك استفادت من الرومان حسن سياستهم وتدبيرهم وصيانتهم للسلام كما تعلَّمت من امم القرون الوسطى ان تدافع عن المبادئ الدينيَّة اذ رأت ما

---

١) اطلب كتاب شرادر ووِنكلر في الكتابات المسماريَّة والعهد القديم (Schrader-Winck-ler: *Die Keilinschriften und das alte Testament*, 37; 41; 46; 78)

٢) اطلب Comptes-rendus de l'Acad. de Berlin, 1906, p. 356 ثمَّ التاريخ القديم للسيو مسپرو (Maspéro: *Hist. ancienne*, I, 392-3)

٣) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ١٣٠)

للدين من القوّة في طلب آثاره القديمة وصيانة معابده التي لاجلها اهتزّت شواعر الوف من البشر فبرحوا المواطن حبًّا بها (١

ليس التاريخ الّا صدًى لاصطدام الاهواء البشريّة ولما ينجم عن التحامها من النكبات ومن الحروب ومن الخرائب. وعلى خلاف ذلك السلام والخير والفضيلة فانّها لا يُسمع لها جلبةٌ. وبناء على هذا قد قال القائل: طوبى للامم التي ليس لها تاريخ وهذا لا يصحّ في سوريّة كما رأينا. وكان الأولى بها وباهلها ان تبقى في عزلتها دون ان تستلفت اليها نظر العالم. لكن الشعوب كما الافراد لا يمكنها ان تؤثر لها خطّة تجري عليها باختيارها وتنسج على منوالها حياتها العموميّة لأنّ الشعوب في التفكير والله في التدبير

اعلم انّ الثروة والجمال موهبتان خطرتان واوّل غوائلهما انهما يثيران الحسد على اصحابها. قلنا انّ الله سبحانهُ وتعالى اذ منح لسوريّة موقعًا اثيرًا جعلها كطريق عامّ يجمع بين ثلاث قارات العالم القديم وذلك انّ سوريّة محصورة بين البحر والبادية ففيها وحدها طريق سهل يمكن سلوكهُ بين آسية وافريقية وقد ادرك الفينيقيّون ذلك فجعلوها سوقًا واسعةً لتجارة الخافقين وممرًّا متواصلًا لقوافل الامم. واضحى مع ذلك اهل السواحل السوريّة رؤساء البحر وفاقوا كلّ القدماء في خوض غمراته مدّة قرون متعدّدة فمخروا عبابهُ قبل اليونان بزمن طويل. ولمّا اراد البابليّون وبنو اسرائيل ان ينشئوا لهم ملاحة ويعمّروا السفن لم يستطيعوا اتمام مرغوبهم الّا بأن يلتجئوا الى الفينيقيين (٢ وسليمان الملك راسل في ذلك حيرام صاحب صور كما ذكر الكتاب الكريم. لانّ الفينيقيين كانوا اوقفوا نفوسهم ليكونوا سعاةً وعمّالًا بين الشعوب الساكنة على سواحل البحر المتوسّط ففتحوا في كل مرفأ مكتبًا تجاريًّا لمعاملاتهم. وسبقت صور وصيدا غيرهما من المدن في الاستعمار فانّ اوّل مستعمرة يذكر التاريخ انشاءها ينسبها لتينك المدينتين. واليهما يعود الفضل في توسيع المعاملات التجاريّة وتعميمها بين الدول. فان المتاجرات كانت قبل ذلك محصورة بين الشعوب المتجاورة فتتبدل الواحدة ما يزيد على احتياجها مما ينقصها من محصولات جارتها. والتجارة على هذه الصورة ترتقي الى اوّل العالم. امّا الفينيقيون فانّهم انشأوا

١) اطلب الجغرافية التاريخيّة Georges A. Smith: *Historical geogr.*, p. 13

٢) راجع كتاب دليتش في موقع الفردوس (Delitzsch: *Wo lag das Paradies*, p. 99)

التجارة الكبرى اعني التجارة البحريّة فنالوا من الفخر ما لم يحصل عليه شعب آخر الى القرن السادس عشر اذ دخل فنّ الملاحة في طور جديد باكتشاف قارة اميركة (١ . وما يزيد فضلهم انّهم اوّل من نهج تلك المسالك وكان المصريّون من قبلهم كما البابليّون والصينيّون منزوين في اصقاعهم يتنعّمون ببهات الطبيعة دون ان يفكّروا في نشرها بين غيرهم

وفي هذا لعمري عبرةٌ للمتبرين لا سيّما اذا قابلوا بين صغر بلاد فينيقية وسعة مستعمرات اهلها وبعدها السحيق . وليس في ذلك ما تُنكر صحّتهُ او يُردّ برهانهُ لأنّ التاريخ قد بيّن منذ ذلك العهد انّ الدول التي ضاقت مساحة املاكها اذا ما كانت مجاورة للبحر في احدى جهاتها كانت اسرع الى الاستعمار وأحكم فيه من الدول الكبيرة ذات التخوم البرّيّة لأنّ هذه الدول لا يمكنها ان تستعمر في الخارج قبل ان تقوم باستعمارها الداخليّ فتحسّن املاكها وتستثمر اراضيها وكلّ ذلك يقتضي زمناً مديداً بل اجيالاً طويلة ويستفرغ قوى الأمة . ولو سهت عن ذلك وقدّمت الاستعمارات الخارجيّة عرّضت نفسها الى التهلكة كما حدث آخراً لروسيّة التي تملك في اوربّة على انحاء مثّمة واقطار فسيحة بينها السهول القفرة التي لم تُحسن زراعتها فارادت ان تزيد في املاكها الاسيويّة الى حدود الشرق الاقصى فكان من امرها ما كان واصابها من الويلات ما هو فوق نكبات حربها مع اليابان . ولنا بيّنة على صدق هذا القول في تاريخ البرتغال والبندقيّة وجنوة وهولندة وفي أيّامنا هذه في تاريخ بلجكة فرأينا ما نالتهُ هذه الدول الصغيرة من الفوز والتقدّم في استعماراتها

ومثل البندقيّة حريٌّ بالاعتبار لأنّها جدّدت بعد الفي سنة اعمال الفينيقيين فنالت في طرف البحر المتوسّط الغربيّ ما نالهُ الفينيقيّون في الطرف الشرقيّ . وكلا البلدين في موقع متشابه واهلهما مولعون على سواء بالعيشة البحريّة . وانّما بينهما فرق واحد وهو انّ الحركة الاستعماريّة للبنادقة ابتدأت من الغرب فبانت الاقطار الواقعة في شرقيّ البحر المتوسّط (٢

(١ اطلب تاريخ التجارة في القدم, E. Speck: *Handelsgeschichte des Altertums*, I, 506–507)

(٢ اطلب Edmond Demolins : *Comment la route crée le type social*, p. 347,349

وقد سبق السوريون وادركوا ما لموقع بلادهم من المحاسن وعرفوا انهم يصيبون الهدف اذا ما عانوا الاسفار البحرية وتكلفوا اعمال التجارة فان توسطهم بين الدول القديمة اعني بابل ومصر كان كافياً لأن يكسبهم الثروة الواسعة فينقلون الى اهلهم السلع المتعددة ويبتاعون منهم محصولات بلادهم المتوفرة فيربحون على الوجهين الارباح الطائلة اذ يبيعون بالاسعار الغالية ويشترون بالاثمان المتهاودة. وفي ذلك سر غناهم العظيم وكما انهُ كان اقوى مهماز لتنشيط اعمالهم

واليوم ان تروّيت في احوال الامم التجارية وجدت انَّ اسباب ترقيها تنوط باحد هذه الامور الثلاثة اعني وضعها الجغرافي كاتساع سواحلها ثم تركيب طبقاتها بتوفر مناجم فحمها الحجري ثم احوالها الاقتصادية الدائرة على حرية التبادل والمعاهدات التجارية المبنية على اصول قريبة وقوانين سهلة (١ . فمن هذه الامور الثلاثة لا يسعنا الجواب على آخرها ونحن نجهل شروط التجارة بين الفينيقيين بين غيرهم من الامم . اما الامر الثاني اعني الفحم فانهم لم يكونوا اليهِ في حاجة لما اصابوا في جبالهم من ثروة الغابات التي تسدُّ حاجاتهم في تسيير السفن وهم لا يعرفون اذ ذاك تسيير السفن بقوة البخار . فيبقى علينا ان نبحث عن الامر الاوّل فنبيّن الاسباب الجغرافية التي اكسبتهم احتكار التجارة البحرية

ان نظرت الى لبنان رأيت سلسلتهُ تمتدُّ موازيةً للبحر لكنَّها من مسافة الى اخرى تلقي في البحر رؤوساً تنتصب فوقهُ وتشرف عليهِ اخصُّها الرأس الابيض بين عكَّا وصور ثمَّ راس نهر الكلب ولا سيَّما راس الشقعة الناطح بطرفهِ الهائل بين بترون وطرابلس وليس بين هذه الرؤوس الضخمة مكان الّا لأودية حرجة عميقة او لسهول متوسطة في سعتها او لشقق مستطيلة من الرمل والصلصال تحتفرها الصخور على صور شتَّى منها داخل في البحر ومنها راكب بعضها على بعض ومنها المسنَّن ومنها المروَّس والمدرَّج . فاقتضى على الاهلين الذين قطنوا في هذه الارض الحرجة بين البحر والجبل ان يوجّهوا بنظرهم الى مياه العرعرم لينالوا منها ما يسدُّ رمقهم اما بالصيد واما بالتاجرة بين مدينة واخرى . فهكذا كانت صيدا مقاماً للصيد كما يدلّ عليهِ اسمها قبل ان تضحي مركزاً بحرياً عظيماً

(١) اطلب مقالتنا عن التجارة في القرن التاسع عشر في مجلد سابق (المشرق ١٠ : ٣٠)

وهذه اللحوظات عن غرائب الساحل السوري كادت اليوم تبرح عن الخواطر بعد ان امتدّت على سيف البحر طرق العربات بل مُدّت الاسلاك الحديدية لقواطر البخار فيسير المسافر على الطريق السوية الممهّدة دائرًا حول رؤوس الساحل وقاطعًا لركام الصخور دون ان يحجزهُ حاجزٌ اللهمّ الّا رأس الشقمة الذي لم يتمكّن المهندسون من قطعهِ حتّى الآن. ولكن هيهات ان تجد مثل هذه الطريق السهلة في المسالك القديمة فانك لو نهجتها لعلمت ما يتكلّفهُ السائر في سيرهِ من المشقّة لينتقل من وادٍ الى آخر وما يحول دون مرامهِ من توريبات السكّة ومن المراقي الصعبة قبل ان يبلغ مكانًا قريبًا لو امكنهُ قطعهُ على طريق مستقيم. فلا بدع أن الاهلين منذ نشأت التجارة فكّروا في تقصير هذه الطرق بالسالك بحرًا وربّما كانت الطريق البحرية هي وحدها الممكنة

وان قيل انّ السواحل السورية مكشوفة ليس فيها ملاجئ للسُفن في وقت الانواء فضلًا عن انّ عدّة مرافئ كحيفا وطرابلس ولا سيّما يافا لا يمكن الرسوّ قربها أيامًا طويلة في فصل الشتاء فكيف كان الفينيقيون يبحرون؟ نجيب على ذلك انّ الملاحة القديمة كانت تخالف ملاحتنا اليوم فانّ البحريين ما كانوا يُقلعون مراكبهم الّا في فصل الهدوّ وصفاء الجوّ فكانوا اذ ذاك يفضّلون الوقوف عند الرؤوس او عند الجزر البحرية فلا يشعرون بهبوب النسيم حتّى يسرعوا الى السير على الساحل من مدينة الى مدينة ومن رأس الى رأس. وكانت السفن الفينيقيّة كبيرة مسطّحة لا تغوص كثيرًا في الماء حتّى انّها كانت تستطيع ان تصعد النيل الى الاقصر (١ فكان الملّاحون يراصلون سيرهم من ارواد الى طرابلس فبيروت فصيداء فصور راسين عند رؤوسها كما في طرابلس وبيروت او عند الجزُر المجاورة لها كما في ارواد وصيداء وصور ومستقين من العيون التي تُرى في كلّ هذه الامكنة جاريةً فيها ومخصبةً لها. اما في فصل الشتاء فترى مراكبنا اليوم اذا احسّت بقرب النوّ اقلعت الى الغمر لئلّا تغوص بالرمل او تُلقي بها العاصفة على الصخور. وكان الفينيقيون في فصل الشتاء في مأمن من ذلك يجرُّون الى البرّ سفنهم الى ان تهدأ الريح وتزول العاصفة

امّا اذا اعتبرت سواحل سوريّة من حيث وضعها الجغرافيّ فانك تجد فيها مُسهّلات متعدّدة للملاحة القديمة فانّ مراحل السفن من مكان الى آخر كانت قصيرةً واذا ارست

(١ راجع التاريخ القديم لسبيرو (Maspéro: *Hist. anc.*, II, 407)

في محلّ صادفت فيه عيونًا دائمة لا تنقطع وكذلك كان سيرها عاجلًا تجاري الساحل في خطّه المستقيم دون ان تتريث بالخلجان المتسعة والموانئ الباطنة وذلك فضلًا عمّا يهبّ في السواحل السوريّة من الرياح الثابتة الهبوب المعتدلة . فكل هذه الصفات لم تسمح للقدماء بان يتركوا شواطئهم سدًى كالدقعاء المقفرة تأوي اليها الضواري والكواسر وتسبح في مياهها التنانين دون ان يستخدموها لمنافعهم لمامًا للصيد واما للمتاجرة

هذا ولا ننكر ان الساحل السوريّ مع صلاحيته للملاحة لم يخلُ من بعض المخاطر كما رأينا وذلك لانكشافه وتعرّضه للرياح الشماليّة العاصفة ولكثرة ما يتخلّله من الرؤوس والصخور البارزة لا ماجأ فيه للملّاح مع ما يلقاهُ في سيره الى الجنوب من المقاومة من قبل المجاري المضادّة (١) . فان كلّ ذلك يستدعي نظرًا صائبًا وحذاقة بالغة في خوض البحر فكان ينال في هذا الجهاد اليوميّ خبرةً ليوسّع نطاق اسفاره البحريّة التي كانت تساعده عليها الغابات اللبنانيّة اذ يجد في اخشابها ولا سيما ارزها ما يقوى به على مثل هذه الرحل البعيدة

وممّا تجدي السواحل السوريّة من النفع لاصحابها فضلًا عن الملاحة التجاريّة مجاورتها للجبال القائمة في وجه سكّانها كأنّها تدعو اهلها الى قطع مشارفها ليلقوا ما وراءها ما يقوم بمعاشهم في السهول الواسعة الخصبة التي تسدّها تلك الجبال عنهم . ألا ترى انّ الساحل الفينيقي قليل الاتساع لا يستطيع اصحابه ان يستغلّوا ربع الارض ممّا لا غنًى عنهُ من القمح والزيت . وقد ذكر الكتاب المقدّس (سفر الملوك الثالث ف ٥) انّ غاية ما طلبه حيرام الصوري من سليمان الملك بدلًا من خدماته مقدار من الزيت والحنطة . فهذه الحاجة في ساكن الساحل يُضاف اليها عدم وجود الجزائر يتنفع من غلّاتها وبعده عن قبرس الحافلة بسكّانها . كلّ ذلك صرف بنظر السوريّ الى جبله ليفتح له معبرًا يجتاز به الى البقاع التي من ورائه فنقر في الصخور تلك المراقي الصعبة التي يقطعها المكاري مع بغاله بسرعة عجيبة وقدم ثابتة . وبسيره هذا لا

---

(١) وما قد تحقّق بالاختبار انّ للنيل فعلًا في استقامة السواحل السوريّة لأن مجرى مياهه مع الرياح التي تهبّ على امتداد الساحل من جهة الجنوب الغربيّ قد جرّ الرمال التي يجرفها في سيره الى شواطئ فلسطين وجبلها متساويةً خصوصًا جنوبيّ الكرمل . (راجع ما قلناهُ سابقًا في تسريح الابصار ج ٢)

يلبث ان يعتاد ما هو اوسع عملاً واجدى نفعاً فيتحوّل الى قائد قوافل ولا يزال يجدّ ويكدّ نافذاً في وسط اوديته متوجّاً بين سيولها الجارفة ثمّ راقياً الى اعالي جبله حتّى يبلغ عطفه الآخر فيدخل في تلك السهول الداخليّة الفسيحة التي تُعدّ كالصحراء حنطة لا تنفد مستغلّاتها وكان من هناك يضرب في الارض راحلاً الى انحاء العراق فيستجلب منها محصولاتها التي كان مواطنوه ينقلونها بحراً الى الجزائر المجهولة الواقعة في بحر الظلمات

انهُ لناموس من نواميس الهيئة الاجتماعيّة انّ الدول التي تنحصر املاكها في حدود ضيقة اذا كانت ثروتها واسعة ونقودها متوفّرة ان تطلب لضغطها منفذاً بتوسيع تجارتها والسعي وراء الاستعمارات. فقد ادرك اجدادنا السوريّون والفينيقيون هذه الحقيقة اذ ليس امرٌ جديد تحت الشمس فاستشفّوا ما وراء البلاد التي اعتبروها كحدودهم الشرقيّة بلاداً غيرها لاحت لهم في اعماق الأفق نريد شبه الجزيرتين الهنديّتين وما يُطيف بهما من الجزائر فاستوقفت تلك الاقطار انظارهم بما تتضمّنهُ من المرافق العديدة والثروة النباتيّة الواسعة واصناف الزهور الناصعة الالوان التي تفوق ما يُرى من ذلك في غيرها من الانحاء. فلم تثبط همّتهم المسافات الطويلة والعوائق المتعدّدة. فكانوا ينقلون من حدودها ما يستحبُّهُ تمدّن ذلك الزمان لحاجاتهِ او لذّاتهِ من افاويه وعطور وزيوت طيّارة واقمشة زاهية وضروب القطنيّات الهنديّة الرقيقة والانسجة المشرقة الالوان واصناف الحرائر البهيّة التي يبذل الباعة الدينار في حقّها بيدٍ سخيّة. وكذلك كانوا يستجلبون من الهند المعادن الثمينة كسبائك الذهب وصفائح الفضة واللؤلؤ والعقيق والياقوت وقطع الماس التي تزدان بها تيجان الملوك واكأة الاميرات. وكان الناس لاعتبارهم لتلك البلاد يروون عنها العجائب والغرائب فيعدّون ارضها تبراً وهواءها مسكاً وثمارها شفاء وقوّة وطيرها شبيهاً بالانسان في نباهتهِ وحسنهِ

فتجارة الهند في تلك القرون البعيدة كانت تُحسب كثروة البلاد وغنى الشعوب كما حسبها بعد ذلك اهل القرون الوسطى. وكانت تلك التجارة تروج او تكسد على مقتضى امور الزمان وصروف الحدثان ينقلها من مظانّها الكلدان والعرب تأتي بها قوافلهم على طريق آسية الوسطى الى اطراف بحر العجم او البحر الاحمر وكان الفينيقيون يرحلون الى جهات بابل والى انحاء اليمن فينقلون تلك المحصولات الى المرافئ السوريّة فيصرفونها الى الغرب

وكان من نواميس العالم القديم أنهم اذا ارادوا المتاجرة مع الاقطار النازحة يفضلون في ذلك الطرق البرّية رغماً عن طولها على خوض البحار وان كانت طريقها اقرب واقصر. وذلك على خلاف ما نرى في تجارتنا اليوم وهي توثر الطريق البحرية على سواها فتسير المراكب الى اقصى ما تستطيع لأنهم يجدون في تفضيل البحر سرعة فضلاً عن كونها اقل كلفاً. لكنّ هذا النظام حديث ابتدأ منذ انتشرت الملاحة الشراعية الكبرى ولا سيما منذ اكتشاف القوة البخارية. وكانوا قديماً لا يركبون البحر الا لمواصلة الطريق البرّية لأنّ الملاحين القدماء كانوا اذا اقلعوا قاصدين بلداً معلوماً لا يعرفون ما سيلاقيهم في طريقهم من العاقات وخصوصاً ما سيلاقون من الرياح الموافقة او المعاكسة فيعرفون ساعة خروجهم ولا يعلمون يوم وصولهم. ولذلك كان القدماء لا يتجشمون اهوال البحر الا عند الضرورة الماسة (١ وكان الفينيقيّون يرون في ذلك رأي غيرهم من الشعوب مع كونهم ادخلوا البحر في تاريخ العالم. وبينما نشاهد اليوم التجارة مترتبة على الملاحة منوطة بها في المعاملات كانت على عكس ذلك في الزمن القديم برّية محضاً. فلا نرى انهُ خطرَ على بال احدٍ ان يصرف القناطير المقنطرة لفتح قناة كقناة سويس او قناة پاناما. فان نظرت مثلاً الى الحيريين وكان لا يفصلهم عن مصر الا بحر صغير ترى انهم كانوا يفضلون على هذا السفر القصير في بحر القلزم طريقاً بعيدةً كانت القوافل تتبعها فتسير على سيف البحر الى وادي موسى ثمّ الى غزّة وهي الطريق التي كان يسلكها العرب الى زمن ابي سفيان والى اوائل تاريخ الهجرة. ولعلّهم لم يختاروا البحر للاخطار التي كانت تتهدّدهم في البحر الاحمر والسفر فيه صعب لكثرة صخوره وتعدّد مجاريه وشواطئه الرمليّة فضلاً عمّا كان في سواحله من القرصان او اللصوص الذين يهجمون على الفرق فينهبونهم او يستعبدونهم (٢ (له بقيّة)

---

١) اطلب مقالة بيرارد في المجلّة الاثرية (V. Bérard, *Revue arch.*, 1899, I, 80)

٢) اطلب تاريخ التجارة (Speck: *Handelsgeschichte*, I, 17-18)